مشكلة الزوج الغائب الحاضر

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 27 نوفمبر 2020

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

عن عائشة رضي اللّه عنهما قالت: دخلَت عليّ خولة بنت حكيم، وكانت عند عثمان بن مظعون، فرأى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بذاذة هيئتها، فقال لي: يا عائشة ما أبذ هيئة خويلة.

فقلت: يا رسول اللّه، امرأة لها زوج يصوم النهار، ويقوم الليل، فهي كمن لا زوج لها، فتركت نفسها، وأضاعتها.

فبعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى عثمان بن مظعون، فجاءه فقال: يا عثمان أرغبة عن سنتي ؟ قال: فقال: لا واللّه يا رسول اللّه، ولكن سنتك أطلب.

قال: فانتق اللّه، فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء يا عثمان، فإن لأهلك عليك حقا، وإن لضيفك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا، فصم وأفطر، وصل ونم.

فأتتهم المرأة بعد ذلك عطرة كأنها عروس، فقلن لها: مه ؟ قالت: أصابنا ما أصاب الناس. (رواه أحمد وغيره، وصححه الألباني).

هنا الموضوع يختلف تماماً عن الموضوع الأول (الذي تحدثنا عنه في المقال السابق)، وإن كان الموضوع أيضًا يتعلق بالعاطفة، إلا أنها عاطفة غلو وتشدد والخروج عن المألوف وعن الاحتياجات البشرية التي يحاول الإسلام ترسيخها وتحقيقها من خلال حسن المعاملات والعلاقات بين أفراد المجتمع، فالإسلام دين الوسيطة فلا إفراط ولا تفريط، فهذه هي سنته صلى اللّه عليه وسلم، التي كان حريصاً على توضيحها في العديد من المناسبات لأنها أصل الإسلام.

والعلاقات في الإسلام تتوزع بين الواجبات والمسؤوليات، فنحن هنا لا نتحدث عن حبك لذاتك وتحقيق رغباتك الذاتية فحسب كما ينادي بها بعض الفلاسفة الذي يقولون «إن حب الذات والنفس يجب أن يكون له الأفضلية عند الإنسان»، فهم يزعمون أن الإنسان يجب أن يحب ذاته فقط، وأن يشرب القهوة بنفس من غير أن يشاركه أحد، وأن يسير على الساحل وينظر إلى الأفق بنظرات المستقبل لنفسه، كل ذلك لنفسه فقط، كل ذلك لنفسه ولنفسه فقط، وهذا ما يعرف اليوم بحب الذات، ولكن في الإسلام فأنت جزء مهم من مثلث متكامل، وهذا ما قاله الصحابي سلمان الفارسي رضي اللّه عنه لأخيه أبي الدرداء رضي اللّه عنه عندما زاره فوجده قد انقطع للعبادة حتى أهمل حق زوجته وحق نفسه. فقال «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، ولِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، ولأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ». وقد أقره النبي صلى اللّه عليه وسلم على ذلك بقوله «صدق سلمان»، وفي رواية: «لقد أوتي سلمان علماً».

وقد صرح النبي صلى اللّه عليه وسلم بذلك بوضوح لعبد اللّه بن عمرو رضي اللّه عنه حينما بلغه أنه يقوم الليل كله، ويصوم الدهر كله، ويختم القرآن

في كل ليلة، فقال: «فلا تَفْعَلْ، قُمْ ونَمْ، وصُمْ وأَفْطِرْ، فإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا».

ويمكن أن يلاحظ أن الحديث بدأ بحق اللّه «إن لربك عليك حقا»؛ لأنه أوكد الحقوق وأعلاها، وأعظمها وأولاها، ومع ذلك أبت الشريعة أن يطغى على بقية الحقوق، واعتبرت الزيادة فيه عن الحد نوعًا من الغلو المرفوض والطغيان الزائد الذي ينهى عنه صاحبه، ولما كان الغلو في العبادة أول ما يعود بالنقص على حق النفس والإضرار بالبدن، كان التوجيه النبوي «إن لنفسك عليك حقا»، أو «إن لبدنك عليك حقا». كما نحسب أن الأهل لا يشمل الزوجة فقط، وإنما يشمل الأمر ويتضمن كل الأرحام وخاصة الوالدين والإخوة والأخوات ثم البقية.

وفي أماكن أخرى قال صلى اللّه عليه وسلم: «أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»، وهذا هو المنهج النبوي الشريف المستمد من الشريعة الغراء.

قَالَ الحافظ ابن رجب في فتح الباري: «كان النَّبيُّ صلَّى اللّهُ عليْه وسلَّم يأمر أصحابه بما يطيقون من الأعمال، وكانوا لشدَّة حرصهم على الطاعات يريدون الاجتهاد في العمل، فربَّما اعتذروا عن أمر النَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليْه وسلَّم بالرفق، واستعماله له في نفسه؛ أنَّه غير محتاج إلى العمل؛ بضمان المغفرة له، وهم غير مضمون لهم المغفرة، فهم يحتاجون إلى الاجتهاد ما لا يحتاج هو إلى ذلك، فكان صلَّى اللّهُ عليْه وسلَّم يغضب من ذلك، ويخبرهم أنَّه أتقاهم وأعلمهم به، فكونه أتقاهم للّه يتضمن شدَّة اجتهاده في خصال التقوى، وهو العمل، وكونه أعلمهم به يتضمن أنَّ علمه

باللّه أفضل من علمهم باللّه، وإنَّما زاد علمه باللّه لمعنيين؛ أحدهما: زيادة معرفته بتفاصيل أسمائه وصفاته، وأفعاله وأحكامه، وعظمته وكبريائه، وما يستحقه من الجلال والإكرام والإعظام، والثاني: أنَّ علمه باللّه مستند إلى عين اليقين، فإنَّه رآه إمَّا بعين بصره، وإما بعين بصيرته، كما قَالَ ابن مسعود وابن عباس وغيرهما: رآه بفؤاده مرتين، وعلمهم به مستند إلى علم يقين، وبين المرتين تباين، ولهذا سأل إبراهيم عليه السلام ربَّه أنْ يرقيه من مرتبة علم اليقين إلى مرتبة عين اليقين بالنسبة إلى رؤية إحياء الموتى».

لذلك عندما قام صلى اللّه عليه وسلم بتحليل المشكلة وجد أن هناك خللاً في مفهوم الوسطية والتشدد في الفكر والمنهج الإسلامي عند الصحابي الجليل عثمان بن مظعون رضي اللّه عنه، إذ يمكن أن يدخله ذلك في مفهوم الرهبنة وهذا الفكر مرفوض في الإسلام من مبدأ (لا رهبانية في الإسلام)، فكان لا بد من اتخاذ موقف، فاتخذ موقفًا وأعطى أوامره صلى اللّه عليه وسلم من خلال ذاته الشريفة وسنته وأعماله التي تبين بوضوح هذا المبدأ والفكر الإسلامي، فكان قرار، فهو صلى اللّه عليه وسلم لم يتبع بقية خطوات منهجية حل المشكلات فيما عدا تبيان بعض المعلومات التي أخذها من عائشة رضي اللّه عنها حينما سألها عن هيئة خولة رضي اللّه عنها، أما بقية منهجية وخطوات الحل فهو صلى اللّه عليه وسلم في هذه الحالة في غنى عنها، فهو صلى اللّه عليه وسلم لا يحتاج إلى استشارة، ولا توجد بدائل كثيرة للحلول، أما من حيث التنفيذ فقد كانت النتيجة واضحة في اليوم التالي.

ولنواصل لاحقًا مع مشكلة أخرى،